

يصدق أن إنساناً يستطيع أن يبلغها. أ تكون شهرزاد هاديته إلى التصوف ومرشدته إلى الحقائق العليا وإلى عالم المعرفة الذي تطمح إليه نفس الإنسان طموحاً غامضاً وتشقى لأنها لا تبلغ منه ما تريد!

ومهما يكن من شيء، فقد أخذ الملك يثوب إلى نفسه قليلاً قليلاً، ويجد في هذا المأماً ممضاً، ويحس كأنه يدفع إلى عالم لا عهد له به، وكأن نفسه قد أصبحت غريبة في هذا الجسم الذي تُرد إليه، وكأنه قد ارتقى في الجو إلى أبعد ما يمكن أن يرتقي، ثم أهبط فجأة إلى الأرض، فكاد يختنق من سرعة الهبوط، وكادت نياط قلبه أن تتقطع من شدة ما حبس عنه الهواء.

وأخذ الملك يحس كأن شهرزاد إلى جانبه تجد مثل ما يجد، وتألّم مثل ما يألّم، ويعاودها الشقاء كما يعاوده الشقاء، ثم ينظر فإذا هو إلى جانب شهرزاد قد وضع يده في يدها ينظر إليها دهشاً وتنظر إليه دهشة، والزورق يسبح بهما دائماً في الماء والضوء والموسيقى والغناء. هناك يسمع الملك صوت نفسه وهو يسأل شهرزاد وكأنه يأتي من بعيد: «أين نحن؟! ماذا نسمع؟! وماذا نرى؟! ألا تنبئيني آخر الأمر من أنت وماذا تريد؟!» ثم يسمع ضحك شهرزاد ساخراً ساحراً وصوتها مداعباً ملاعباً وهو يقول: «لقد رجعت إليّ مولاي ورجعت إليك بعد غيبة طويلة.»

انظر! هذه شهرزاد تتحدث إلى شهريار في زورق من زوارق القصر على تلك البحيرة التي أشرف عليها القصر يوماً ما، ومدّ إليها وما زال يمد إليها يدًا كأنه يريد أن يهوي إليها أو أن يأخذ منها شيئاً. «انظر يا مولاي! أ ترى إلى هذه الأسراب من الزوارق تزينها الغصون الخضر والورق النضر والزهر البهيج! إنها تسبح فيها كما يسبح هذا الزورق، وفيها أزواج من الفتيات والفتيان قد نعموا كما نعمنا وألّموا كما ألّمنا، وهم يعودون إلى حياتهم الهامدة الجامدة الراكدة كما نعود إليها، وفي نفوسهم مثل ما في نفوسنا من الحزن، وفي قلوبهم مثل ما في قلوبنا من الأسى. انظر يا مولاي! املأ عينيك مما ترى، وأذنك مما تسمع، ونفسك مما تشهد، فلن يبقى لك من هذا كله إلا الذكرى. انظر يا مولاي! بحيرة من ماء يغمرها بحر من ضياء، وبحر من موسيقى، وبحر من غناء، ويقوم عليها إلى حين قصر ملك من الملوك شقي فيه وسعد، ونعم فيه وابتأس، ثم خرج منه فخرج من سعادة الناس وشقائهم، ومن نعيم الناس وبؤسهم حيناً طويلاً أو قصيراً، ثم هو يعود إليه ليستأنف فيه حظه من سعادة الناس وشقائهم ومن نعيم الناس وبؤسهم.» قال الملك في صوت حزين كأنما يأتي من بعيد: «أليس يمكن أن ننأى عن هذا القصر إلى آخر الدهر؟!»